تحوُّل الاعراض الجوية

من الحر الى البرد و بالعكس

من المسائل التي كادت تتفق على ثبوتها كلمة علماء الهيئة ان العوارض الجوية في الأقاليم والأصقاع والبلدان تتحول على كرور الأعصار والدهور من حالة البرد الى حالة الحر و بالعكس غير ان سير هذا التحول يكون بطيئاً جداً تبعاً لسير عاله واسبابه فهو مما لا يمكن للانسان ادراكه الاّ اذا عاش الوفاً من السنين منتبهاً اليه في جميع مدة حياته على اننا اذا فرضنا ان انساناً عاش مدة الفي سنة واحس بالفرق الحاصل بين الحالتين في اول عمره وفي آخره فبأيّ طريقة كان يمكنه ان يخبرنا بهذا التحول والتغيير على وجه الحقيقة مع فقد الوسائط والآلات التي تعرف بها درجات الحر والبرد على هذا الوجه . لا جرم انه لا سبيل له الى اخبارنا بهذا التغير والتحول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شفاهاً او كتابة الاّ بفحص الآثار الطبيعية التي احدثها هذا التحول في طبقات ارض صقعه ونباتاته وحيواناته من انقراض بعض طوائف منها ونشء طوائف اخرى غيرها وبما نشأ عن ذلك التحول والتغير من تبدل اساليب المعيشة وازياء اللباس وطرز المباني وغير ذلك من الامور التي تقص علينا خبر تحول العوارض وتفيدنا عنها بلسان حالها فائدة تقريبية ليس الاّ . ان تحول العوارض الجوية من حالة الى اخرى دائمة ناشىء عن اسباب طبيعية كثيرة منها تناقص قرص الشمس وبعده عن الصقع او قربه منه بمقتضى ناموس حركاتها الطبيعية الكثيرة ومنها اتجاه بقع دكناء في قرص الشمس الى جهة الصقع وتحولها عنه ومنها قرب البحر وبعده بسبب المد والجزر الدائمين ومنها كثرة المشاجر والغابات وقلتهما الى غير ذلك من الأسباب التي يطول الكلام عليها . واليك في قرب البحر وبعده مثلاً تعلم منه صدق قولنا (ان تحول العوارض الجوية من حالة الى اخرى لا يمكن للانسان ان يدركها الا اذا عاش الوفاً من السنين) فأقول :

لنفرض ان البقعة القائمة فيها الآن مدينة حلب كانت في اثناء الدور المائي ساحلاً بحرياً انتهى اليها الجزر الدهري بدليل وجود مواد صدفية وحيوانات مائية متحجرة في بعض جبالها الواقعة على بعد غلوة منها وقد زرت مدينة اسكندرونة عدة مرات وكنت في كل مرة ألاحظ ضفة البحر وأدقق في مقدار مسافة البر التي انسحب عنها البحر مدة غيابي عنها . فظهر لي ان انسحاب ماء البحر في تلك المدة عن كل متر من بر اسكندرونة يستغرق مدة سنتين ومعلوم ان المسافة الممتدة بين حلب واسكندرونة على خط مستقيم تقدر بستة وسبعين كيلومتراً فقياساً على مدة انسحاب البحر عن بر اسكندرونة يكون انسحاب البحر من حلب الى اسكندرونة قد استغرق مدة ثمان وثلاثين الف سنة فهل في العالم اثر تاريخي يقص علينا نبأ حالة العارض الجوي في حلب حينما كانت بقعتها ساحلاً . كلا ثم كلا ولما كانت هذه المسألة مما يعز على العقول ادراكه بوضوح وصراحة تامّين فقد اختلف الناس في الحالة الجوية في حلب وما جاورها من الأصقاع والبلدان فمن قائل ان العارض الجوي فيها آخذ على الدوام والاستمرار من قديم الزمان بالتحول من حالة البرد الى حالة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحر ومن قائل بالعكس ولكل فريق من هذين الفريقين ادلة يؤيد بهـا ما ادعاه ونحن نأتي بأدلة كل فريق منهما وننتقد ادلة الفريق الأول فقط لان اعتقادنا يميل الى صحة ما قاله الفريق الثاني الذي سكتنا عن انتقاده اعتماداً على من يريد انتقاده اذا كان غير مذعن لأدلته على ان ينتقد حينئذٍ انتقاداتنا التي اوردناها في ادلة الفريق الأول . وعلى كل حال فان غرضنا من ايراد هذه المقدمة اظهار الحقيقة في قضية تحول العارض الجوي في اصقاع حلب هل هو آخذ على الدوام والاستمرار بالتحول من حالة بالبرد الى حالة الحر ام من حالة الحر الى حالة البرد ام لا هذا ولا هـذا بل هو يأخذ بالتحول من احدى الحالتين الى الأخرى مدة ثم يعود الى الأخذ بالتحول عنها الى الحالة الاولى وهكذا يستمر متردداً بين هاتين الحالتين حيناً بعد حين الى ما شاء الله تعالى .

« أدلة الفريق الاول القائل بالتحول من حالة البرد الى حالة الحر »

﴿الدليل الأول﴾ : هو قول بعض اشياخ معاصرين لنا من اهل حلب : نخال الآن اننا حينما كنا اطفالاً نحس بألم البرد اكثر مما نحس به الآن واننا كنا في تلك الايام نشاهد في فصل الشتاء كثيراً من البرك والحياض قد جمد ماؤها وكثيراً من ميازيب الأسطحة قد تدلت قضبان الجمد من افواهها كما اننا كنا نخال ان تساقط الثلج على مدينة حلب وضواحيها في ذلك الفصل كان كثيراً وانه ربما تساقط عليها في بعض السنين عشرات الايام حتى انه في احدى السنين دام الثلج يتساقط على حلب مدة اربعين يوماً وتعرف تلك السنة باسم (سنة اربعين ثلجة) .

﴿الدليل الثاني﴾ : هو ماذكره المختار بن الحسن بن سعدون بن بطلان الطبيب المتوفى سنة « ٤٥٨ » في مقالة يثبت فيها اختلاف احوال البلدان من جهة الحر والبرد مستدلاً على صحة دعواه هـذه بما حكاه له اشياخ حلب من ان شجرة الأترج ما كانت تنبت في حلب لشدة بردها وان الدور القديمة في حلب لم تكن تستطاع السكنى في طبقتها السفلى وان الباذهنجات (ملاقف الهواء) حدثت في حلب منذ زمن قريب حتى انه لا دار الا وفيها باذهنجات بعد عدم وجودها أصلاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انتقاد هذه الأدلة

ان ما يقوله بعض اشياخ اهل حلب المعاصرين لنا لا يصلح ان يكون دليلاً قطعياً على صحة ما ادعاه الفريق الاول لان احساس الصغير بالبرد وتألمه منه لا لأنه شديد بل لضعف مزاج الصغير وقلة تحمله البرد يؤيد هذا انه يصبر على ثقل الدثار حين ينام اكثر مما يصبر عليه الكبير فتراه يتغطى باللحاف من فرقه الى قدمه ولا يضيق صدره من انحباس نفسه لان مادة الغاز الفحمي في نفسه اقل منها في نفس الكبير يضاف الى هذا ما كانت عليه الملابس من قلة الانتظام وعدم وجود الأقمشة المدفئة وشدة تدفئة الخلوات بالنار في ايام الشتاء وسد جميع منافذها وكثرة الجلاس فيها فكان الصغير اذا خرج من هذه الخلوات الحارة المغتصّة يفاجئه الهواء البارد فيتألم منه المّا زائداً وربما اصابه مرض قتال كالخناق وغيره من الأمراض التي تنشأ عن مفاجأة البرد كما هو الحال الآن في كثير من الناس الذين يبالغون في تدفئة خلواتهم ايام الشتاء جهلاً منهم بقوانين الصحة والضرر الذي ينشأ عن مفاجأة الهواء البارد واما مشاهدة كثرة البرك والحياض الجامد ماؤها وكثرة تدلي قضبان الجمد من افواه المازيب وكثرة تساقط الثلج على مدينة حلب فذلك ايضاً من باب استعظام الصغير صغار الامور لانه يرى بعينه الحقير جليلاً وكل شيء يستعظمه في صغره يبقى في فكره ومخيلته عظيماً ولو كان لذلك الصغير عقل الشيوخ في ايام صغره لما عدّ ما كان يراه في تلك الايام شيئاً يذكر بالنسبة الى ما حدث من هول الثلج والجمد في سنة ١٣٢٩ هجرية ولله در ابي الطيب القائل :

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائمُ

اما ما حكاه «المختار» عن اشياخ حلب فهو ايضاً لا يصلح ان يكون دليلاً على صحة ما ادعاه هذا الفريق . بيان ذلك ان عدم نبت شجرة الأترج في حلب في هاتيك الايام لا لشدة برد حلب بل لان هذه الفصيلة من الشجر كانت قبل سنة « ٣٠٠ » من الهجرة غير موجودة ولا معروفة في حلب وجميع بلاد سوريا والعراق ومصر وغيرها من الممالك الواقعة في المناطق المعتدلة او المائلة الى الحرارة قال المسعودي في كتابه مروج الذهب ما خلاصته ان هذه الشجرة يعني شجرة الأترج وما هو من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فصيلتها لم تكن موجودة في هذه البلاد قبل الثلاثمائة وانما حملت من ارض الهند الى غيرها بعد هذا التاريخ فزرعت بعمان ثم نقلت الى البصرة والعراق والشام حتى كثرت في دور الناس في طرسوس وغيرها من الثغور الشامية وانطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر وما كانت تعهد ولا تعرف الخ (اه) وهناك دليل آخر على ان عدم نبت هذه الشجرة في ذلك التاريخ لعدم وجودها لا لشدة البرد هو انه كان يوجد في حلب شجر النخيل الذي هو اقل تحملاً للبرد من شجر الأترج كما يأتي بيانه قريباً واما عدم استطاعة السكنى في الطبقة السفلى من بيوت حلب فهو ايضاً لا يصلح ان يكون دليلاً قاطعاً على شدة برد حلب بل بالعكس فانا نرى ان اهل البلاد الشمالية الباردة كالأناضول يفضلون في ايام البرد السكنى في الطبقة السفلى عن السكنى في الطبقة العليا لان الطبقة السفلى تكون اقل برداً من العليا لانها اقل تعرضاً للهواء . نعم ان عدم استطاعة السكنى في الطبقة السفلى يصلح ان يكون دليلاً على كثرة الرطوبة والعفن في حلب في تلك الايام كما هو الحال الآن في دمشق الشام التي لا تكاد السكنى تستطاع في الطبقة السفلى في كثير من احيائها ايام الشتاء لكثرة الرطوبة والعفن . لا يستبعد العقل ان تكون مدينة حلب في القرون الأولى من نهضتها العمرانية كثيرة الرطوبة لتزاحم ابنيتها وعدم انتظام مجاري مياهها وسكانها اذ ذاك يبلغون ضعف سكانها الآن على الأقل معظمهم محصور داخل سور البلدة الذي تقدر مساحته في ذلك التاريخ بنحو النصف من سورها الحالي وكان خندق القلعة في هاتيك الايام مملوءاً من المياه تعزيزاً لحصانة القلعة قد انصبت اليه جميع المياه القذرة من المحلات المجاورة على ما ادركناه في حداثة سننا وكانت تلك المياه والقاذورات تجري على سطح الارض دون بالوعات تسترها وتحبس روائحها الكريهة . يضاف الى هذا كله مستنقعات الخندق الكبير المحيط بسور البلدة مع ضيق الأزقة والشوارع الى رادة تمنع عنها تخلل الهواء ونور الشمس كما هو الحال الآن في بعض الأحياء المتطرفة من مدينة حلب . ولهذه الاسباب ترى في صحف التاريخ المنبئة عن كوائن هاتيك الأزمنة كثرة الاخبار عن الأوبئة والطواعين المتتالية في حلب التي لا يفصل بين الأول وتاليه سوى سنيّات قليلة . فكيف تستطاع السكنى

*

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والحالة هذه في الطبقة السفلى من بيوت مدينة حلب . واما استطاعة السكنى فيها بعد ذلك فهي لا شك انما كانت بعد ان تحسنت حالة البلدة وخفت فيها اضرار الزطوبات . لا لان البرد قد تحول الى الحر . واما عدم وجود الباذهنجات اولاً ثم وجودها اخيراً فان المفهوم من عبارة «المختار» ان البرد بينما كان في مدينة حلب شديداً اذ تحول بغتة الى الحر ومست الحاجة الى عمل الباذهنجات . وهذا مما لا يتصوره عاقل فقد علمت مما ذكرناه ان سير تحول العارض الجوي بطيء جداً تبعاً لسير علله واسبابه فالاولى ان نحمل تسرع اهل حلب الى عمل الباذهنجات على قصدهم التفنن وتحسين المباني والاقتداء ببغداد عاصمة الممالك الاسلامية في الشرق بعمل الباذهنجات تلطيفاً لحر الصيف وتخفيفاً للعفونات التي كانت تعتري البيوت بسبب كثرة الرطوبة التي بينا اسبابها .

« أدلة الفريق الثاني القائل بالتحول من الحر الى البرد »

﴿الدليل الأول﴾ : وجود شجر النخل في حلب في قديم الزمان فان الشاعر الصنوبري المتوفى سنة ٣٣٤ نظم قصيدة بديعة طويلة مدح بها حلب وذكر متنزهاتها وازهارها ثم قال :

اي حسن ما حوته حلب او ما حواها
سروها الداني كما تدنو فتاة من فتاها
آسها الثاني قدود الهيف لما ان ثناها
نخلها زيتونها او لا فارطاها غضاها

فالمفهوم من البيت الاخير ان شجر النخل من جملة انواع الشجر التي كانت في مدينة حلب وهو كما قلنا سابقاً اقل تحملاً للبرد من شجر الأترج على انه الآن لا أثر له في حلب البتة ولا يمكن ان يعيش في ارضها ولا فيما قرب منها .

﴿الدليل الثاني﴾ : استقصينا كثيراً من الدور العظام القديمة في حلب فوجدنا اكثرها قد خلت من جهتها المتجهة الى الجنوب من الغرف والخلوات وان اكثر هذه الدور كان يعتني اهلها الأقدمون بجهتها المتجهة الى الشمال لانهم يبنون فيها الأواوين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والغرف تحت وفوق فعدم اعتنائهم في الجهة المتجهة الى الجنوب لم يكن له من سبب في تلك الازمنة سوى شدة حرارتها بسبب اشراق الشمس عليها واعتناؤهم بالجهة المتجهة الى الشمال لم يكن ناشئاً اذ ذاك الا عن اعتدال حالتي الحر والبرد في فصل الشتاء اما في هذه الايام وفيما ادركناه من الاعوام قبلها فان الجهة المتجهة الى الجنوب من الدور في حلب هي التي تبذل العناية في بنائها خلوات وغرفاً سفلاً وعلواً وهي تعتبر عندنا من اشرف جميع المساكن التي تكون في باقي جهات الدار . وان الدار التي تخلو جهتها هذه من البيوت والغرف تعد عندنا مشوهة والمثل المشهور عند الحلبيين الآن قولهم : «بيت يسكن صيفاً وشتاء» وهو المتجه الى الجنوب وبيت يسكن صيفاً فقط وهو المتجه الى الشمال والغرب وبيت لا يسكن لا صيفاً ولا شتاء وهو المتجه الى الشرق » .

﴿الدليل الثالث﴾ : وجود كثير من شجر الاترج في بساتين حلب في الزمن القديم فقد ذكر دارفيو الذي كان قنصل دولة فرانسه فيها سنة «١٠٤٠» في كتابه الذي سماه « تذكرة اسفاري » انه شاهد بساتين حلب مملوءة من شجر الأترج فهذا دليل صريح على ان العارض الجوي في حلب كان منذ ثلاثمائة سنة معتدلاً يمكن ان يعيش فيه هذا النوع من الشجر . مع اننا الآن لا نعرف بستاناً خارج حلب يشتمل على شيء من هذا الشجر اما في حدائق البيوت فيوجد منه القليل الا انه لا تكاد شجرته تبلغ حد الاثمار الا ويدهمها الصقيع فتيبس وهكذا استمر شأن هذه الشجرة منذ اربعين سنة حتى اصبحنا في يأس من نجاحها في حلب وصار الناس عندنا يسمونها شجرة الهم لما يتكبدونه من الزحمة في حمايتها وحفظها من البرد .

﴿الدليل الرابع﴾ : يوجد الآن في جبل ليلون كثير من اصول شجر الزيتون الذي له فروع ضئيلة لا يزيد ارتفاعها على قدر قامة الانسان وهي غير مثمرة وفيه ايضاً اطلال معاصر لعصر الزيت من الزيتون واحواض منقورة في الصخر لاحراز الزيت مما يدل على ان هذا الجبل كان وطناً للزيتون مدة عصور طويلة اما الآن فانه اذا غرس فيه شيء من هذا الشجر نبت وطالت فروعه لكنه لا يكاد يبلغ حد الاثمار الا وتطرقه آفة البرد فيصقع ويبس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

﴿الدليل الخامس﴾ : كنا نعهد في ضواحي حلب وبعض البلدان المضافة اليها عدداً غير قليل من مغارس الزيتون الناجح الثمر الذي يوجد فيه كثير من الاشجار المعمرة التي مضى على غرسها مئات من السنين بل بعض المرتزقين بالزيتون يبالغون في قدم هذه الاشجار ويقولون انها قائمة في مغارسها من زمن المسيح صلوات الله عليه . على ان اكثر هذه المغارس قد عطب منذ عشرات السنين وانتهى عطبها عن آخرها بما فيها من الاشجار المعمرة في سنة « ١٣٢٩ » وبهذا يستدل على ان البرد الذي عطبت به هذه الاشجار لم يمر عليها نظيره منذ نشأت والا لما سلمت كل هذه المدة .

﴿الدليل السادس﴾ : ان القطن كان يوجد في جهات حلب اشجاراً خالدة تبقى الشجرة منه عدة اعوام على ما حكاه ابن البيطار في تذكرته على ان القطن لا يكون اشجاراً خالدة الا في الاصقاع المعتدلة في الحر والبرد . وهو الآن مما لا وجود له في حلب ولا في جهاتها مطلقاً وانما يزرع مجدداً في كل سنة .

هذا ما أدى اليه اجتهادي ودلني عليه البحث والاستقصاء وعسى ان تكون هذه المقالة داعياً لافتتاح باب جديد يتوصل منه الى البحث عن العوارض الجوية في محروسة دمشق وغيرها من البلاد السورية فتعلم منه حقيقة ما كانت عليه وما آلت اليه من هذه العوارض فيبنى على النتيجة المتحصلة امور هامة لا يسع المقام ذكرها والله اعلم

حلب كامل الغزي